الكتابة والفجيعة
تمثيلات النّكبة في "التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا" لأبي القاسم الزّيّانيّ

مُعاذ الجابريّ* / باحث أكاديميّ في برنامج الدراسات العُليا
قسم اللغة العربيّة – جامعة قطر(m_aljabree@hotmail.com)

د/ هيثم سرحان أستاذ الأدب العربيّ والنقد وتحليل الخطاب
قسم اللغة العربيّة – جامعة قطر (haithamsarhan@qu.edu.qa)

تاريخ الإرسال: 2021/03/07	تاريخ القبول: 2021/05/02	تاريخ النشر: 2021/06/01

Abstract:

This research reveals an analysis of the manifestations of the seven calamities that Abu Al-Qasim Al-Zayani subjected to during his three trips that he immortalized in his book "The Great Translator in the News of the Earth, Land and Sea", interrogating them and working on their interpretation, probing and clearing their manifestations, and revealing at the same time Al-Zayani's ability to employ travel literature and make it Mediator in translating his tragedies and grief, The emergence of the catastrophe and the rise of the bereavement in the same Zayani, and its occupation of an insignificant part of the nomadic discourse that he presented in our hands, he built in his heart a reaction to express that anguish that he suffered as a result of his passing through the state of loss and the feeling of insecurity as a result of what the tragedy constituted, relying thus on his cultural repertoire And his historical background and life experience, with their bitters and bitters, in describing these calamities, based on the assumption that Al-Zayani was able to translate his calamities and to describe his tragedy in his travels, despite his travel in the spaces of places in search of delights, but he changed the course of the "Grand Translator" to be a reference that lists It has what the grieving self and his grieving ego lived.

***Keywords*:** Representations - Abu Al-Qasim Al-Zayani - Alawite State - Bereavement - The Nakbas.

مُلخّص البحث

يسعى هذا البحث إلى تحليل مظاهر النّكبات السّبع التي تعرّض لها أبو القاسم الزّيّانيّ في رحلاته الثلاث التي خلّدها في كتابه "التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا"، واستنطاق تلك النكبات والعمل على تأويلها وسبر أغوارها وإجلاء مظاهرها، ويكشف في الآن نفسه عن قدرة الزّيّانيّ على توظيف أدب الرحلة وجعله وسيطًا في ترجمة مآسيه وأناه المفجوعة؛ فبروز النكبة وعلو الفجيعة في نفس الزّيّانيّ، واحتلالهما جزءًا غير يسير من خطابه الرحليّ، بنى في قرارة نفسه ردّة فعل للتعبير عن تلك الغصّة التي مُني بها جرّاء مروره بحالة الفقدان والشعور بانعدام الأمان نتيجة ما شكلته الفاجعة، معتمدًا، في تنصيص تلك النكبات، على ذخيرته الثقافية وخلفيته التاريخية وتجربته الحياتية، بحلوها ومرّها انطلاقاً من فرضية مُفادُها أنّ الزّيّانيّ استطاع أنْ يترجمَ نكباته وأنْ يُنصّص مأساته في رحلاته. وعلى الرغم من انتقاله في فضاءات الأمكنة بحثًا عن المسرّات إلا أنه غيّر مجرى "الترجمانة الكبرى" لتكون مرجعًا يسرد فيها ما عاشته ذاته المكلومة وأناه المفجوعة.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة – أبو القاسم الزّيّانيّ - التّمثيلات – الفجيعة – النكبات.

إشكالية البحث

يُعَدُّ أدب الرحلة واحدًا من أهم أعمدة الأدب العربي، ذلك أنه يشكل وثيقة مهمة تحفظ مشاهدات الرّحالة للبلاد التي يزورها أو يمرّ بها، ويسجل تجاربه وخبراته التي اكتسبها خلال الرحلة، بالإضافة إلى توثيق ما يراه من أحوال شعوب تلك البلاد ورصد ما يطالعه من عادات وتقاليد ونظام حكم وقضاء وغير ذلك مما له علاقة بعلم الإنسان وطرائق حياته. كما أنّ أدب الرحلة يقوم مقام المراجع التي لا غنى للباحثين في ميادين التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا

عنها، فهو صندوق يحوز تفاصيل شتى وإجابات عدة، نظير التّقاطع الحاصل بينه وبين العلوم والحقول الأخرى.

ليس هذا فحسب، بل إنّ أدب الرحلة يمتلك خاصيّة استيعاب أجناس أدبية متنوّعة ونصوص مُتعددة ويسمح لها بالالتحام في بنيته التّفاعليّة. ومن أبرز تلك الطّروس والنصوص والعلامات: الشّواهد القرآنيّة والشّعرية، والسيرة الذاتية، وأخبار القدماء والمحدثين، وأخبار الأمصار والشعوب، وغيرها، الأمر الذي يضع بين أيدينا أنموذجًا جليًّا لتداخل الأجناس الأدبية، لتتشكل بذلك مادة غنية بالآداب والعلوم والمعارف المختلفة.

إنّ خصائص الخطاب الرّحليّ الانفتاحيّة التّفاعليّة تجعله نافذة مشرعة يبث من خلالها الرحّالة كلّ ما مرّ به في رحلته، واستحضار تجارب حياته، من إنجازات وأفراح ومسرات من جهة، وآلام وتوجّعات وفجائع من جهة أخرى.

الدراسات السابقة

لقد حظي نصّ "**التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**" وكاتبه أبي القاسم الزّيّانيّ (ت 1249 هـ/ 1833 م) بعناية الباحثين والدّارسين، ويُمكنُ الإشارة، في هذا المقام، إلى أبرز تلك الدراسات:

1- **إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي** (Крачковский, Игнатий Юлианович)، **تاريخ الأدب الجغرافي، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، (د ط)، 1957، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.**

يرى المستشرق الرّوسيّ كراتشكوفسكي أنّ أبا القاسم الزّيّانيّ أكبر مؤرخي المغرب في القرنين الثامن عشر والتّاسع عشر؛ فهو رحّالة انصبّ جهده على دراسة التاريخ بالإضافة إلى عنايته الكبيرة بعلوم الجغرافيا. ويرى أنّ الزّيّانيّ لم يحظ بموقع طيب

في نفس العلماء المعاصرين له عازيًا ذلك إلى استقلالية رأيه ووضوحه في عصر يعجّ بالأحداث ويمور بالتّقلّبات، لا سيما آراؤه الشخصية في المواضيع المعقدة.

وقد بذل كراتشكوفسكي جهدًا جليًّا مُختصرًا ومُكثّفًا في تسليط الضوء على رحلات الزّيّانيّ. غير أنه لم يَعْرِض النكبات والآلام التي حلّت به، وفي الوقت ذاته، فقد اشتمل ما عرضه كراتشكوفسكي على وصف لأسلوب الزّيّانيّ في رحلاته، وأشار إلى أنّ كتاب **"الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا"** "أوسع من العنوان"، في إشارة إلى شموليته وامتلائه بالأحداث والشّواهد التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها[1].

2- محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ط1، 1977، دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء.

تناول الباحثُ في كتابه حياة أبي القاسم الزّيّانيّ ومسيرته في التّرحال وخدمة السّلاطين، وعده أكبر مؤرخ مغربي في عهد الدولة العلويّة، وأشار إلى أنه ولد في عام 1734م، وهو من قبائل البربر التي تقطن بالقرب من خنيفرة. وأسهب محمد الأخضر في الإشارة إلى كبار العلماء والشيوخ الذين تلقّى أبو القاسم الزّيّانيّ العلوم والفقهيّة واللغويّة والأدبيّة على أيديهم، مما منحه رصيدًا فكريًّا ضخمًا وذخيرة لغوية ثرية، في المدينة الإدريسية، وعلى رأسهم والده أحمد بن علي الزّيّانيّ، ومن هؤلاء العلماء، محمد بن إبراهيم، ومحمد بن الطيب القادري، والتاودي بن سودة وغيرهم. كما عرضَ محمد الأخضر أسباب هوان الزّيّانيّ في أعين شيوخه وأقرانه، إذ أفرط في العناية بأمور السحر والتنجيم إلى الدرجة التي صار يتغيب فيها عن حلقات العلم.

وقد انصرف محمد الأخضر إلى استعراض مؤلفات الزّيّانيّ وصنّف كلَّ مؤلّفٍ حسب اختصاصه، تتصدرها "**الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا**"، وهو الكتاب الضخم الذي وثّق فيه رحلاته الثلاث ونكباته السبع، ومؤلفات تتحدث عن سياسة الملوك، مثل "**رسالة السّلوك فيما يجب على الملوك**"، ومؤلفات في الرد على المبتدعة، كمؤلفه "**كشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار**". علاوة على مؤلفات الزّيّانيّ في التاريخ وضعها لتأريخ الدولة العلوية الذي جعله بعنوان "**البستان الظّريف في دولة أولاد مولاي الشريف**"، أو "**الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية وما تقدمها من الدول الإسلامية**". إضافة إلى "**أرجوزة في وفيات ملوك المسلمين**" البالغة أبياتها ألف بيت، فضلاً عن مؤلفيه المفقودين في **السحر والسيميا**.

ولم يأت محمّد الأخضر على شيء من النكبات السبع والمواجع التي اتّسمت بها منعطفات حياة الزّيّانيّ المفصلية، لكنه آثر عليها الحديث عن لغة الزّيّانيّ في الكتابة، وخصّ به اللغة المسجوعة التي تميزت بها سائرُ كتاباته ورسائله[2].

3- أفاريست ليفي بروفنصال (Évariste Lévi-Provençal)، مؤرخو الشّرفاء، تر: عبد القادر الخلادي، (د ط)، 1977، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط.

أفرد بروفنصال (Provençal) صفحات طوال للحديث عن الزّيّانيّ وسيرة حياته والرحلات التي قام بها، ووصفه بأن أوسع علماء عصره ثقافة، وأكثرهم صراحة، وأشدهم بساطة، فلم يكن برأيه متصنعًا أو متكلفًا، ولم يكن متحفظًا على استعمال الحوشي من الكلام.

وقد عمد بروفنصال إلى سرد المحطات التي مر بها الزّيّانيّ في مسيرة حياته، بداية من اللحظة التي أبصر فيها النور في مدينة فاس عام 1734م، وحتى لحظة وفاته عام 1833م، مروراً بمحطات تلقيه العلوم على أيدي كبار العالم في عصره، ثم توليه مناصب حكومية وتدرجه فيها إلى درجات رفيعة، حتى أصبح أهم مؤرخي السلاطين وجغرافييهم، وتناول كذلك الرحلات الثلاث التي قام بها بشكل مستوفٍ، مع إشارته إلى النّكبات التي مرّ بها، حرفيًّا كما أوردها الزّيّانيّ في الترجمانة، كما تناول مؤلفاته وظروف كتابتها، والجوّ السياسي العام الذي كان سائدًا، وقتئذ، بشكل موسع.

لقد أوسع بروفنصال الزّيّانيّ ومؤلفاته تحليلاً، من وجهة نظر تاريخية، وقارن بين المخطوطة التي اعتمدها المستشرق الفرنسي هوداس (Houdas) لنشر الجزء المخصص بالدولة العلوية من كتاب الزّيّانيّ الموسوم بعنوان "**الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**" عام 1886، والمخطوطة التي اعتمدها بروفنصال في نشر **الترجمانة**، مفضّلاً عليها تلك الأخيرة، نظرًا لاشتمالها على فصول أكثر من سابقتها[3].

4- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، تقديم: محمد بن عزوز، ج2، ط1، 2010، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

يصف عبد الله كنون الزّيّانيّ في الذكريات بالرجل الشديد الذكاء، والمؤرخ الداهية، والشجاع القوي النفس، وفي الوقت ذاته، هو السّاذج الذي لا يتورع عن رفد

كتاباته بالحوشي من الكلام، العارية عن كل تصنع أو تزيد، وهذا إنْ دلّ فإنما يدل على سلامة صدره ونقاء سريرته، بحسب ما استوحاه كنون من كتاباته.

وكما يدل عنوان الكتاب، فقد سرد كنون كافة تفاصيل حياة الزّيّانيّ من بابها إلى محرابها، لتكون رصيدًا يضاف إلى باكورة ذكريات أهم رجالات المغرب في العلم والأدب والسياسة بغية تخليدها وإفادة الأجيال المتعاقبة منها، كونها تُعَدُّ ذخرًا هائلاً من التجارب الحياتية في شتى المجالات، إضافة إلى كونها رافدًا مهمًّا وكنزًا للمعلومات في علوم عدة.

أضف إلى ذلك فإنّ كنون عرض الرحلات التي قام بها الزّيّانيّ والنكبات التي واجهته، بتفصيل كبير دون أن يحاول كشف المضمر في النّكبات أو العمل على استنطاقها، لينصرف بعد ذلك إلى تسخير كبير جهده في الحديث عن طبيعة نفس الزّيّانيّ البشرية، وسذاجته الفطرية كما أسماها، وأسلوبه الذي يتسم بالوضوح في الكتابة وترفعه عن التعقيد وقربه من العامية، علاوة على انتقاد كنّون أشعار الزّيّانيّ التي لم تخل من المثالب المتمثلة بغياب سلامة القوافي، وابتعادها عن الالتزام بالعروض[4].

5- نزار التجديتي، الناظم السردي في السيرة وبناتها "دراسات فيما وراء العيان والخبر، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع – عمّان، 2019.

يتحدث نزار التجديتي في كتابه الناظم السردي عن الترجمانة بوصفها رحلة تضرب مثالًا على الرحلة العربية التي تَتَمَيَّزُ بضمها أجناسًا وألوانًا من الكتابة والسفر والعبور، كذلك تُشَكِّلُ الترجمانة مثالًا على الرحلة المغربية العربية التي تتميز بنصوص منسجمة الفكر حول المشرق الإسلاميّ والغرب المسيحيّ.

علاوة على ذلك فقد تحدث التجديتي عن تضمين أبي القاسم الزّيّانيّ ترجمانته ثلاثة أجناسٍ أدبية على الأقل، وهي: ترجمة أبي القاسم الزّيّانيّ وسيرته الذّاتية ، والرحلة بأنواعها المتعددة، والأخبار، وأسباب تأخر نَظْمِ الترجمانة وظروف كتابتها، فضلا عن إشارة التجديتيّ إلى عوامل تثبيط أبي القاسم داخل البلاط المخزني وخارجه، منها النّكبات التي لم يتطرق إلى تفاصيلها أو يعمل على استنطاقها أو تأويلها[5].

تقييم الدراسات السابقة

نلفي من خلال تفحّص تلك الدراسات والاطلاع عليها، أن الباحثين والدارسين جعلوا كبير عنايتهم في الاطلاع على رحلات الزّيّانيّ وسردها، والتركيز على مؤلفاته كلّ واحد منها واختصاصاتها، والحقل الذي أنبته الزّيّانيّ فيه، **فإغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي**، لم يقل الكثير فيه سوى أنه كان مستقلاً برأيه، مخالفاً لتوجهات معاصريه، مؤلباً أعداءه عليه وحسّاده، وربما يعود هذا الاختصار الشديد في تناول حياة الزّيّانيّ وأعماله، إلى طبيعة المؤَلَف الذي وضعه كراتشكوفسكي، فهو يتحدث عن تاريخ الأدب الجغرافي العربي بشكل عام، دون التركيز على علم بعينه.

بينما أسهب **محمد الأخضر** في ذكر تفاصيل الرحلة وإبراز أهم ما قاله الزّيّانيّ في الترجمانة حولها، كما عُني محمد الأخضر بالحديث عن مؤلفاته والحقل الذي ينتمي إليه كل كتاب، والأسلوب اللغوي الذي اعتمده في الكتابة.

في حين أفرد **ليفي بروفنصال** مساحةً شاسعة في مؤلفه للزياني ورحلاته ومؤلفاته، وقال رأيه فيه بصراحة، إذ نظر إليه على أنه أوسع علماء عصره ثقافة، وأكثرهم صراحة.

أما عبد الله كنون فقد خصص كتابه لتسطير ذكريات مشاهير العلم والأدب والسياسة في المغرب، وهذا بطبيعة الحال ينطبق على الزّيّانيّ الذي عدّه كنون أدهى الرجال في تلك الحقبة وأشدهم ذكاء، لذا نجد أنّ كتابه زاخرٌ بتفاصيل حياة الزّيّانيّ ورحلاته، ولم يكتف بذلك، بل إنه عُني أيضاً بالنظر إلى أسلوب الزّيّانيّ في الكتابة، وتفحص أشعاره التي افتقدت، بحسب كنون، إلى سلامة القوافي وعلم العروض.

بينما تحدث **نزار التجديتي** عن التّرجمانة بوصفها أدب رحلة جامعًا أجناسًا أدبية أخرى، كالسيرة الذاتية والأخبار والرحلة، وعن أسباب تأخر الزّيّانيّ في

كتابة ترجمانته، والإشارة إلى بعض العوامل المثبطة التي من ضمنها النّكبات التي تعرض الزّيّانيّ لها، دون سبر أغوارها والغوص في ثناياها.

بناء على ما سبق، يتضح أنّ تلك الدراسات لم تقف على النكبات بل إنها تركتها في عتمة الإهمال، وعزفت عن تسليط الضوء عليها وتفحص ملابسات وقوعها وظروف كتابتها، ومن ثم تأويلها بعمق، بحيث نستطيع إكمال سلسلة الدراسات والبحوث حول الترجمانة والرحلات التي خطّها الزّيّانيّ فيها، على الرغم مما لتلك النكبات من أثر عميق في نفسه.

وبناء على ذلك فإنّ لهذا البحث فرضيةً مُحددةً تتمثّلُ في أنّ العنوان "التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا" يشتمل على مكوّن سيريّ بارزٍ ومُتقّدمٍ في النصّ الرّحليّ وهو: ترجمة النّفس. وإذا كان التُّرجمان هو ناقل الكلام من لغة إلى لغة أُخرى فإنّ التّرجمانة، بوصفها مؤشّرًا تناصيًّا وعلامة سيميائيّة، تشتمل على نقل التّجربة الذّاتية إلى العالم والتّصريح بها دونما مهابة أو مهانة أو وجل. وبعبارة أُخرى، فإنّ الرحلة الحقيقية التي أراد الزّيّانيّ كتابتها مبدؤها الذّات ومنتهاها الأنا. ليس هذا فحسب بل إنّ مقاصد الزّيّانيّ تمتدُّ لتشمل أخبار المعمور في أرجاء البرّ والبحر، والسّير في مسالك النّفس ومفاوز الذّات لتنكشف له وجوه الخراب الإنسانيّ وتشوّهات وجوده ومعالم اضطراب هويته وملامح اختلال كينونته.

تمثّلُ الفجيعةُ الناتجة عن المحن والنكبة مكونًا من الأهواء القارّة التي عبّر عنها غريماس (Algirdas Julien Greimas) بكونها أبرز أبعاد الإنسان. وهوى الفجيعة لا يُمارسُ في الواقع ولا يُمكنُ التّعرّف عليه إلاّ بفضل الطّابع المتواتر للاتّصال والطّابع الاستمراريّ للانفصال[6].

لذلك فإنّ الهدف الذي يتوخاه يقصده هذا البحث يكمن في سبر أغوار تلك النكبات، والعمل على استنطاقها وتأويلها، في سبيل الوصول إلى الأسباب التي جعلت الزّيّانيّ يُسَخِّرُ أدب الرحلة ليجعل منه خطابًا يعبّر فيه عن توجعاته المعيشة بسبب تلك النكبات، ويمده جسرًا يوصل به إلينا معاناته آلام الفجيعة.

وقبل الشروع في سبر أغوار نكبات الزّيّانيّ والتعمق فيها واستنطاقها، لا بدّ من الحديث عن أمرين اثنين، أولهما تداخل الأجناس الأدبية، إذ إن الترجمانة تجمع بين دفتيها أدب الرحلة والسيرة الذاتية والأخبار، وثانيهما الاستجابة والإثارة، ذلك أن الإنسان تتولد لديه ردود فعل لا إرادية في بعضها تجاه ما يثير مشاعره، سواء بالفرح، أو الحزن، أو الغضب وغيرها.

أولاً: تداخل الأجناس الأدبية

يكاد يكون النظر إلى النصّ الأدبيّ بنيةً مستقلة عن غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى صعبًا للغاية، لأنه لا يمكن للعمل الأدبيّ أنْ يكون بمعزل عن الأجناس الأدبية الأخرى المختلفة عنه، وفي الوقت ذاته، لا يعني دخول الأجناس الأدبية إليه، خروجه من الجنس أو النوع الذي ينتمي إليه، وانتماءه إلى غيره[7]. ولعل تداخل الأجناس الأدبية هو ما يمنح النصّ الأدبيّ قيمته دون أنْ يشكّل التدّخل محوًا لخصائص الجنس الأدبيّ ويفقده عناصره التي يمتاز بها عن غيره[8].

إنّ أدبَ الرِّحلة يُعدُّ مثالًا مهمًّا على تلاقح أجناس أدبية متعددة، فهو وإن كان ذا بنية سردية وأخباريّة في وصف البلاد والأراضي والشعوب التي يمرّ بها الرحّالة؛ إنّه وسيلة ينصّص الرحّالة، من خلالها، ذاته، ليخرج إلينا أدب الرحلة مُطَعَّمًا بالسيرة الذاتية. وهذا يعني أنّ الترجمانة الكبرى تشتملُ على وصف الرحلات التي قام بها أبو القاسم الزّيّانيّ، وأخبار الأمم وشعوب البلاد التي زارها، إضافة إلى كونها تتضمن ملحًا ونوادرَ وأشعارًا، علاوة على سيرة

الزّيّانيّ الذاتية، ومن ثَمَّ فإن الترجمانة أدب رحلة تتفاعل فيه الأجناس وتتقاطع فيها علامات الذّات وإشارات الموضوع في علاقات تشابكيّة مُعقدّة.

وعلى العكس من ذلك، فهناك سير ذاتية تحمل في طياتها رحلات المروي عنه، من أهمها: سيرة العلامة ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1406 م) التي تحمل عنوان "التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقًا وغربا"، فالأساس أنها سيرة ذاتية تسرد بين سطورها الرحلات التي قام بها ابن خلدون شرقًا وغربًا.

إضافة إلى ما سبق، فإن لأدب الرحلة أهمية كبيرة بسبب اشتماله على أنواع شتى من العلوم إلى جانب موضوعه الرئيسي: الرحلة، وتشكل تلك العلوم مصدرًا ثريًّا للباحثين والجغرافيين والمؤرخين والاقتصاديين وغيرهم، كما أنه خطابٌ خليط من أجناس وأنواع أدبية متنوعة، غير أدب الرحلة والسير الذاتية والأخبار، فهو ليس فقط وصفًا جغرافيًا، أو رواية، أو قصة قصيرة، أو حكاية....، بل هو كل ذلك، بالإضافة إلى قدرته على إشباع نهم المؤرخين والجغرافيين بشكل خاص، وغيرهم من رواد العلوم الأخرى بشكل عام[9].

يذهب الإمام الغزاليُّ (ت 505 هـ/1111 م) إلى أنّ "السّفر نوع حركة ومخالطة"[10]، وأوضح أن له فوائد وأضرارًا، فالمسافر إما أن يكون طالبَ شيء، أو هاربًا من شيء[11]. أمّا بطرس البستاني فيرى بأنّ الرّحلة "انتقال واحد – أو جماعة – من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة"[12].

أما أدب الرحلة بمفهومه الخاص، فيرى إنجيل بطرس أنّه رحلة يقوم بها الرحالة إلى بلد آخر غير بلده، ويُدوّن أوصاف ما يشاهده ويسجل انطباعاته بصدق، وبدرجة من جمال الأسلوب[13]. وقد ورد في معجم المصطلحات الأدبية بأنّ أدب الرّحلة "مجموعة الآثار الأدبية، تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق،

ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[14].

ووفق هذا التّصوّر يتضح أنّ الرحلة مرتبطة بالحركة، وتتضمّنُ انتقال المرء وحركته في العالم والوجود بعيدًا عن محيطه المعاش، كما أنه لا يشترط أنْ يكون الرّحالة متخصصًا لذلك، فقد يكون تاجرًا، أو فقيهًا، أو جغرافيًّا، أو سياسيًّا. فالمهم أنّ أدب الرحلة يعتمدُ على تدوين الرّحالة ما يعاينه ويشاهده أثناء سفره، بأسلوب يتسم بالأدبية من حيث البناء اللغوي والتراكيب.

ثانياً: الإثارة والاستجابة

يتميز الإنسان بوصفه مزيجًا من الأحاسيس والمشاعر المختلفة التي يسعى دائمًا، مدفوعًا بغريزته الفطرية، إلى التعبير عنها بطريقة معينة تتماهى والموقف الراهن الذي يمرّ، أو مرّ به، وهذا ما عبر عنه علماء النفس السلوكيون بنظرية "الإثارة والاستجابة"، إذ تُعنى هذه النظرية بالطريقة التي يستجيب فيها الإنسان للمثير وطبيعته، وبكل ما يتعلق بها من عادات وسلوكيات تصاحب هذه الاستجابة[15].

وسنركز حديثنا في هذه الجزيئة عن الإحساس بالألم النفسيّ، وسبب ذلك أنه مرتبط بالحزن والشعور بألم الفاجعة. ويولد هذا الألم النفسي والتوجع الشعوري المرتبط بالنفس، نتيجة ما يخبره الإنسان من تجارب سيكولوجية تشتمل على الحسّ العميق بالمعاناة، الأمر الذي يورث النفس العذاب والوجع، تماماً كالألم الجسدي حين يصيبه ما يؤلمه، ومن ثَمَّ يبدأ الشعور بالعذاب الجسدي[16].

وبناء على ما سبق، يتجلى أنّ مسبب الألم النفسي سيكون المثير الذي سيقابله ردُّ فعل متمثل بالاستجابة من قبل المُثار، وهذه الاستجابة تختلف طبيعتها من شخص إلى آخر اعتمادًا على طبيعة الحالة والاستجابة الشخصيّة.

وفي حالة أبي القاسم الزّيّانيّ، نجد النكبات التي تعرّض لها عملت بوصفها مثيرًا ومُحفّزًا أورثاه الإحساس بالألم النفسي والتوجّع والإحساس العارم بالفجيعة مما دفع أبا القاسم الزّيّانيّ إلى التعبير عن ذلك باستجابة تمثلت بكتابتها وتقييدها في الترجمانة ليطلع عليها العالم بأسره. وإنْ كانت التّرجمانة، في المقام الأول، قد سُخرت لتكون وثيقة قيّدت رحلات الزّيّانيّ وسيرته الذاتية، إضافة إلى المُلَحِ والنوادر والأشعار والأخبار، إلا أنّ الزّيّانيّ رأى في الرّحلة وأدبها فضاءً مشرع الأبواب ليمارس من خلاله ما أسماه سيغموند فرويد (Sigmund Freud) "الإسقاط"[17]، ويقصد به دفاع المرء عن نفسه ضد القلق بهدف خفض التوتر[18] الناتج عن عدم الإحساس بالألم والتفجع.

النكبة الأولى: تمثلات الغرق

وقعت تلك النكبة في رحلة أبي القاسم الزّيّانيّ الأولى الى الحج مع والديه، وكان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره، وفيها يقول: "**ولما بلغنا مصر وتعيّن سفر الركب الى الحجاز، أشار على والدي بعض الأصحاب أن يشتري لي بعض الأسباب ويسافر في بحر القلزم مع الركاب، لقلة المشقة وقرب المسافة، فباع له ما باع من تلك الأسباب، واشترى له ما ينفق بتلك الرحاب، واكترى له الإبل لحمل تلك البضاعة، وسافرنا مع الجماعة، ولما بلغنا مدينة السويس مأوى الراكب، اكترى لنا ذلك الصاحب ، ولما قابلنا مرسى الينبع تكسر المركب وتلفت البضاعة والأسباب، وعتق الله الركاب**"[19].

تُعَدُّ البداية الحقيقية للنكبة الأولى وما خلّفته من ألم وتوجع، حين صرح الزّيّانيّ بأنّ الرحلة مع والديه[20]، أي أنها لم تكن بشغف منه، ولا بقرار شخصي اتخذه بين عشية وضحاها، فشعر الزّيّانيّ بأنه مجبر على مرافقة والديه، لاسيما أنه ولدهما الوحيد. وتتفاقم النكبة عندما تكسر المركب قبالة مرسى الينبع، وهنا يكبر الألم مما لو تحطم المركب وهو راسٍ، فلا هو أوصلهم إلى بر الأمان

بحالتهم التي كانوا عليها حين ركبوا البحر ولم تتلف بضاعتهم، ولا هو تحطم وتكسر في عرض البحر بعيدًا عن المرسى، ومن ثم لا يورثهم حسرة من يرى بر الأمان ولا يستطيع الوصول إليه، كالظمآن يرى الماء زلالاً قريبًا منه ولا يستطيع الوصول إليه.

كذلك فإن في تلف البضاعة حسرة مضاعفه ووجيعة عميقة، لأنها بلا شك هي من يمدهم بأسباب العيش، أقلّها حتى الرجوع إلى الديار، أمّا وقد ابتلعها البحر، فإن ذلك يدفع بوالد الزّيّانيّ للبحث عن حلول أخرى قد تكون عصية على التطبيق، أو الالتجاء الى مدخرات كانت مرصودة لوقت الحاجة، وهذا ما حدث حين أخرجت والدته ثلاث مئة دينار كانت قد خبأتها في حزامها وأعطتها لوالده ليكملوا بها رحلتهم، وفي ذلك يقول: "**وكان عند والدتي ثلاث مئة دينار مخيطة في حزامها، أعدتها لحادث الدهر إنْ أَلَمَّ بها، لا علم لنا بصريحها ولا إبهامها، فلما انقطعنا بالينبع أخرجتها لوالدي...**"[21].

وأما ثالثة الأثافي فتتمثّلُ في تحطّم المركب نفسه؛ فالمركب، في هذه الرحلة، كان الوسيلة الوحيدة للوصول الى الديار المقّدسة بأسرع طريقة وأكثرها قرباً من الحجاز، وهي عن طريق بحر القلزم[22] الذي يسمى حاليًّا البحر الأحمر، فتحطمه قد رسم في مخيلة الزّيّانيّ سيناريوهات عدّها الزّيّانيّ عاقبة أسوأ من مجرد تحطم مركب، وصور له أفقًا متّشحًا بالسّواد، فقد كادوا يلقون حتفهم، وبما أنَّ الله سلمهم[23]، فهذا سيناريو أول مستبعد.

ولعل أسئلة كثيرة دارت في خَلَد أبي القاسم الزّيّانيّ بعد تلك الحادثة، من قبيل كيفية العودة إلى مصر بعد أداء شعائر الحجّ ومناسكه، ومن ثَمَّ العودة إلى المغرب، ولماذا استجاب والده لمشورة صديقه بالسفر عبر البحر رغم أهواله، وامتناعه عن السفر براً وهو الأكثر أمانًا وسلامة؟ لقد ظلت وجيعة النكبة الأولى مستمرة حتى بعد عودة الزّيّانيّ ووالديه إلى مصر، إلى أنْ جالس الزّيّانيّ ابن

صاحب والده، وتلقى على يديه علوم السيميا والرّمل وحيل المشعوذين، فتضاءلت آلام النكبة الأولى ووجيعتها شيئًا فشيئًا، حتى إنه عدّ الحج بعد ذلك حجاً مبروراً[24].

النكبة الثانية: تمثلات غضب السلطان

تلقى أبو القاسم الزّيّانيّ نكبته الثانية بعد أنْ أبعده السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل[25] عن بلاط خدمته بعد أنْ تقلّب في المناصب مدة عشرة أعوام، وكان والده قد حذّره قبل ذلك من العمل مع السَّلاطين، وألحّ عليه في نبذ فكرة العمل مع السلطان من رأسه، فلم يستجب الابن إلى أبيه، بل أصرّ على العمل في بلاط الحكم، إلى أن نُكِبَ نكبته الثانية[26]، وفيها يقول: "**واستمرّ على هذا المنوال إلى التمام، ثم أقبل عليَّ بأنواع النّهي والتحذير ودقائق الوعظ في الأول والأخير، فلم ينفع عزمي نهيه، ولا ردّني إنذاره وهديه، وسعيت في ذلك من أصح طرقه، وتقلّبت في منصب الكتابة من غربه لشرقه، ولقيت من زعازع أرياحه ورعده وبرقه، إلى أن بلغت كورة الرأس ومضيق العنق، ووقفت على دائرة الأفق، في السفر والمقام، مدّة عشرة أعوام، ثم حصلت في النكبة، ووقفت على باب النّدبة، وأقمت بين الهلكة والتلف، عام اثنين وثمانين ومائة وألف، وهي النكبة الثانية**"[27].

يمكننا رصد ثلاثة مواقف بارزة في تلك النكبة، ويتمثل الموقف الأول في إلحاح الوالد على ولده بالعدول عن فكرة العمل مع السلاطين، لأنّ أبا القاسم كان الابن الوحيد المتبقي لوالده، فخاف الوالد عليه نقمة السلطان سيدي محمد بن عبدالله آنذاك، فبعض السلاطين لا يؤمن جانبهم، فقد ورد في الحديث :"حدّثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من سكن البادية جفا، ومن اتّبع الصّيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان

افتتن"[28]، فإذا ما انقلب السلطان عليه، فُجِعَ الوالد بولده الوحيد وانقطع نسله.

ومما سبق يمكننا أنْ نرى في إلحاح الوالد دلالةً على خبرة عميقة في الحياة، وبُعدَ نظر في مثل هذه الأمور، وإن لم يختبر موقف نقمة السلطان بشكل شخصي، إلا أنه ربما عاصر من كان ضحية لغضبة السلطان من قبل، فعرف كيف تكون الوجيعة في مثل هذه المواقف، علاوة على أنّ الأب قدّم صورة مُشرقة لعلاقة الوالد بالولد، بعيدًا عن أي سياقات غير المرتبطة بعاطفة خوف الأب على ابنه.

أما الموقف الثاني فيتمثل في عناد الابن الذي أصرّ على موقفه من العمل في البلاط المخزني، فقد كان الشاب طموحًا مندفعًا للعمل والارتقاء في المناصب الرفيعة في نظام الحكم، لا سيما وهو الواثق من قدراته الأدبية والعلمية، فضلاً عن رؤيته أقرانه النُّجباء ومنافسيه يلتحقون بالعمل لدى السلطان، فرأى أنه لا يقل عنهم شأنًا، وأن مكانه حتمًا يجب أن يكون بينهم[29]. وكان من شأن هذا الاندفاع في خدمة السلطان والحماسة لتقلّد المناصب الحكومية الرفيعة والتقلّب بينها، أنْ يجعل سقوط الزّيّانيّ إثر غضب السلطان عليه، مدويًّا، ويبدو أنَّ الوشاة في البلاط وأعداء الزّيّانيّ قد نالوا مرادهم في إبعاده عن خدمة المخزن، فقد كانوا يدسّون إلى السلطان ما يُقَبِّحُ الزّيّانيّ في عينه، إلى أنْ وقع ما وقع من غضب السلطان عليه وطرده من البلاط بعد عشرة أعوام من تّفاني الزّيّانيّ في خدمة السّلطان والعمل في بلاطه تمخّض عنها سِفاراتٍ وبعثاتٍ دبلوماسية لم تشفع للزيانيّ في انقلاب عليه السلطان وتجريده من جميع مناصبه، فأورث ذلك الزّيّانيّ كَمدًا وألمًا كبيرين خلّفا في نفسه أثرًا بالغًا وعميقًا.

النكبة الثالثة: تمثلات غضب السلطان الثاني

سلطان آخر أوقعَ بالزّيّانيّ نكبة أخرى هو السلطان اليزيد بن محمد بن عبد الله. مَفادُ ذلك أنّ السّلطان كان على اتصال مع القبائل البربرية وعازمًا على معاونتها في ثورته على أبيه عندما كان وليًا للعهد غير أنّ الزّيّانيّ كان يفوت عليه كلّ فرصة في ذلك[30]، وحول هذه النكبة يقول: "**ولما بويع اليزيد، كنت ممن يلطخهم شزرًا، ويرى الإيقاع بهم ليس بوزر، بل ثوابًا وأجرًا، ففوّضت الأمر فيما أخافه وأخشاه إلى ما أرداه الله، وزهدت فيما بين يدي لمن يريده ويترجاه، فلم أشعر إلا وأنا في قبضته أسير، وفي الغل والضيق الشديد العسير، وكل ما عندي من الدور والأسباب محوز، وممنوع مما لا يجوز وما يجوز، وهذه النكبة الثالثة**"[31].

نلاحظ في قول الزّيّانيّ: "كنت ممن يلطخهم شزرًا، ويرى الإيقاع بهم ليس بوزر، بل له ثوابًا وأجرًا..."، أنه اكتسب خبرة في التّعامل مع السّلاطين، وأحسن من الاستعداد لما قد يكون سيئًا يصدر عنهم، فالنكبة السالفة كانت على يد سيدي محمد بن عبد الله، وهذه النكبة، الثالثة، على يد سلطان آخر أيضًا، مولاي اليزيد، إلا أنها لم تكن كسابقتها في الشّدة والألم، وإن كان قد أُسِرَ وغلّ، وواجه الضيق والعسر، ونقص في أسباب العيش، فثمرة الاستعداد للأسوأ وما قد يكون من السلطان من حنق وغضب، خفف على الزّيّانيّ من وقع الفاجعة، وصد بعضًا من شظايا آلامها. وهنا يكمن الفرق الذي يمكن أن نلمسه في الإحساس بالتألم والتوجّع بين النكبتين: الثانية والثالثة؛ فعلى الرغم من أنّ الغضب والبطش عند مولاي اليزيد، قد يكون أكبر من الذي صدر عن سلفه، محمد بن عبد الله، إلاّ أنّ خبرة الزّيّانيّ في التعامل من المحن أدّت دور المِجَنِّ في التقليل من وطأة النكبة والتّخفيف من شدة الألم والفجيعة. ومع ذلك لم يترك الزّيّانيّ الفرصة لتلك الحادثة أنْ تمرّ مرور عابرًا؛ ذلك أنّ النكبات والآلام تترك بلا شك ندوبًا في النفس تتباين في غورها بحسب شدة الفجيعة.

النكبة الرابعة: تمثلات غضب السلطان نفسه مرة ثانية

تلقى الزّيّانيّ نكبته الرابعة على يد السلطان مولاي اليزيد نفسه. يصف الزّيّانيّ فصول نكبته قائلاً: **"وبعد شهور سرّحني وردني لخدمته، ونظمني في سلك كتبته، وبعد شهور وثب عليَّ وثبة الانتقام، التي هي مسك الختام، فضربت بحضرته إلى أنْ غبت عن الوجود، وأخرج الكابوس والملأ شهود، فانقبض لذلك وانتكس، وسار مُغْضَبًا وبس وعبس، وأدبر واستكبر، وقال هذا ساحر البشر، وأقمت بسجن العرائش شهرًا، مع من كان فيه من الأسرى، ثم أمر بقدومي للرباط، وجلس لقتلي في نشاط وانبساط، فعصمني الله منه بعد أنْ جرّدني من اللباس، وقطعت من حياتي "الالياس"، وهذه النكبة الرابعة"**[32].

تُجسّدُ هذه النكبة مستوى مضاعفًا في الآلام والتوجعات أرجع الزّيّانيّ إلى محنته الأولى، صحيح أنّ الزّيّانيّ قد صار خبيرًا في التعامل مع السلاطين، إذ جعل نفسه على أهبة الاستعداد لما هو أشدّ سوءًا من نكباته السّابقة، ووطّن نفسه على ما سيقع عليه من عقوبات قد تلحق جرّاء جرأته في الحقّ، إلا أنّ النكبة الرابعة كانت من شدة الفجيعة كالنكبة الأولى.

وعلى الرغم من أنه تلقى الصّدمة على يد السلطان مولاي اليزيد إلاّ أنّ الخبرة هنا لم تعمل عملها كما في النكبة السابقة؛ فمولاي اليزيد بعد أن نكّل به المرة الأولى عاد وسرَّحه بعدها وأعاده لخدمته، وبعد شهور انقضّ عليه وعرَّضه للضَّرب في حضرته، فكان هذا الانقضاض حركةً غادرةً وطعنةً في الظهر من السّلطان لم يحسب لها الزّيّانيّ حسابًا؛ لأن إعادة السلطان له وردّه إلى مكانته التي كان عليها في حضرة البلاط المخزني، جعله يأمن غدر السلطان ويخرج من حساباته تقلّباته التي قد تستهدفه شخصيًّا، ويدفعه إلى الركون إلى الأمان من جانبه، غير أنّ مولاي اليزيد سرعان ما بدد ذلك الوهم، فأذاقه من العذابات والآلام ألوانًا.

لقد شكلت هذه النكبة آلامًا وأوجاعًا مضاعفة عند الزّيّانيّ، فقد جاءت على يد سلطان ثانٍ بعد أنْ خدمهما الزّيّانيّ بتفانٍ سنين عددا. فضلاً عن أنّ اليزيد نفسه أوقع بالزّيّانيّ نكبتين مُفْجعتين، ولعلّ الفجيعة الثانية أشد إيلامًا من الأولى لا سيّما أنّ مولاي اليزيد ألحقها بالزّيّانيّ بعد أنْ منحه الأمان وأعاده للخدمة بعد أنْ نكبه أول مرة ثم ما لبث أنْ نكبه مرة أخرى، وكانت تلك النكبة الرابعة.

النكبة الخامسة: تمثلات الهزيمة

اختلف النّاكب هذه المرة، لكن الألم واحد والفجيعة واحدة، فيقول الزّيّانيّ عن تلك الحادثة: "**ولما تمت بيعته**[33]**، وبلغ أمنيته، قلّدني ولاية وجدة التي في حيّز الإهمال، وأزعجني لها من غير إمهال، فاستعفيته فلم يقبل كلامي، واسترحمته فلم يرحم ذمامي، وخرجت لها في طالع نحس مكدّر، للسابق المحتوم المقدّر، فجاءنا العرب من كل حدب ينسلون، ووقع الحرب فانهزم من معنا من العسكر هاربون، فنهب العرب ما عندنا من صامت وناطق، وصاهل وناهق، وبتنا بقبضة العيون، بعد قضاء الديون، فأزمعتُ الرحلة عن المغرب، وتركتُ من بقي من أعجمي ومعرب، وهي الرحلة الثالثة، والنكبة الخامسة**"[34].

لقد تزاحمت الأوجاع على الزّيّانيّ وتكالبت عليه المحن ونالت منه الإحن حتى أثقلت كاهله، فقبل أنْ يتعرّض للغزو من قبل العرب أثناء رحلته لتسلم مقاليد السلطة واليًا على مدينة وجدة، بوغت بالغزو الذي كان القطرة التي أفاضت الكأس ودفعته للرحيل عن المغرب في رحلته الثالثة، اعتذر الزّيّانيّ للسلطان مولاي سليمان عن الولاية، وتوسّله أنْ يعفيه منها، فأبى السّلطان اعتذاره ولم يقبل منه استعفاءه، فقبل الزّيّانيّ الولاية مُكْرَهًا، وخرج إلى وجدة متثاقلاً يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى.

إن وقوع مدينة وجدة في دائرة الإهمال وعدم نيلها أهمية مثل سائر مدن المغرب الأخرى مثّل للزيانيّ مُسوّغًا إلى الاعتذار عن ولايتها، واستعطاف السلطان واستعفائه

من هذا التّكليف، غير أنّ السّلطان رفض. لقد رأى الزّيّانيّ في ولايته على وجدة، وهي المهملة غير الآبه بها، إنقاصًا من قدره ومحاولة لإبعاده عن بلاط السلطان بطريقة غير مشرِّفة، بعد ما قضى أعوامًا طويلة خدم فيها عدة سلاطين، حتى إنه كان مُقدَّمًا على غيره عند بعضهم، لذلك حاول أنْ يستعفيَ من السلطان، لكن دون جدوى. ولعل هذا الأمر كشف له، لعمق بصيرته، سوءَ طالع هذه الولاية؛ ففي أثناء مسيره إلى وجدة، وقعت حرب بين الزّيّانيّ ومن كان معه وبين العرب الذين هزموهم ونهبوا متاعهم وما كان في حيازتهم، وتركوهم لا يقدرون على شيء.

لقد شكلت كل تلك العوامل المتمثّلة في التّثاقل عن تسلم ولاية وجدة ومنازعة السّلطان والهزيمة النّكراء التي لحقت بالزّيّانيّ، دافعًا له ليرفعها إلى سِجلّ نكباته، لتضافَ بدورها إلى سلسلة النّكبات الأربع السابقة التي تعرّض لها خلال مسيرة حياته، سواء تلك التي وقعت في رحلته الأولى، أو التي تلقاها على أيدي الحكام الذين خدمهم، وصولاً إلى النكبة المتمثلة بغزو العرب لهم، الأمر الذي فاقم من الإحساس المريع بالفاجعة والألم، حتى إنه قرر الرحيل عن المغرب، وكأنّ أرض المغرب ضاقت عليه بما رحبت.

سوف يجدُ الزّيّانيّ، في السفر والتنقل في الفضاءات المختلفة لا سيما خارج حدود وطنه، متنفسًا للتعبير عما يضيق به صدره ويثقل كاهله من شدة الفجائع التي حاقت به، ففي السّفر خلاصٌ من الإحساس الفادح بالفَقد، ونجاةٌ من النّكبات المُتلاحقة، والهزيمة النّكراء التي مُني في مسيرته إلى ولاية أُكْرِه عليها.

النكبة السادسة: تمثلات الوشاية والدسائس

قبل وقوع تلك النّكبة، كان الزّيّانيّ قد خرج من المغرب، واستقرّ في الجزائر سبعة شهور، إلى أنْ أرسل له السلطان مولاي سليمان كتابًا يحضّه فيه على العودة ويدعوه إلى الرّجوع إلى أرض الوطن، فاستجاب الزّيّانيّ بعد أنْ أخذ المواثيق من السلطان بألاَّ يعيده إلى الخدمة المخزنية[35].

كان البرنامج السّردي يقضي بعودة الزّيّانيّ إلى المغرب ليحيا حياة مطمئنة آمنة لا تقلّب فيها ولا نكبات ولا فجائع غير أنّه مُني بنكبة سادسة. وقد عرض الزّيّانيّ ملامح هذه النكبة في حديثه عن وفاة المولى الطّيّب أخي السّلطان مولاي سليمان قائلاً: **"ولما توفي بمراكشة، وبلغ خبر موته لأخيه، وخبر موت أخيه هشام والحسين وعبد الرحمن والكاتب الكبير ابن عثمان، بعث لي أمره بالقدوم فوافيته بمكناسة، وأخبرني بموت من ذكرت من إخوته، ووجهني في يومي لمراكش لآتي بِمُتَخَلَّفِ أخيه الخليفة، وإخوته الثلاث، والكاتب، فما وسعني إلا الإجابة، إلى أنْ قضيت الغرض ورجعت بِمُتَخَلَّفِهِم، وقلّدني أمر الكتابة جبرًا وقهرًا، وشرّفني بديوان رسائله سرًا وجهرًا، ثم نظمني في سلك حجابته ووزارته، ثم ألحقني بمنصب أهل إماراته، وتقلّبت في مناصب الدولة عدة أعوام، إلى أنْ حصل الملل، وكثرت السّعاية من الأقوام، فنزلت عن المناصب لرتبة النّكبة، ووقفت على باب النردبة، فكانت هذه النكبة السادسة"**[36].

وقبل أن تَحِلَّ بالزّيّانيّ النكبة السادسة، كان السّلطان قد أعاده إلى ميدان الخدمة المخزنية، وتنقل بين المناصب عدة أعوام، حتى تسرّب الملل إليه مصحوبًا بوشايات الأعداء وسعايات الخصوم، فلقيت تلك الادعاءات آذانًا صاغية لدى السلطان، فعزله عن منصب الكتابة وخلع عنه ما حظي به من مكانة سنيّة، حتى وصل إلى، ما أسماه الزّيّانيّ، "رتبة النكبة".

وقد تركت هذه النكبةُ الزّيّانيّ في حالٍ سيئةٍ جدًّا، وأورثته حسرة كبيرة، وألمًا وفجيعة، لكن تجلّده واحتسابه، وتحلّيه بالصّبر وبالإيمان بالقدر خيره وشرّه

خفّف من هول النكبة وشدة الفجيعة؛ إذ إنه اكتسب في هذه التجربة خبرة جديدة أُضيفت إلى رصيده من الخبرات في التعامل مع السّلاطين ورجال البلاط والمخزن، لا سيّما أنه مرّ بالتجربة نفسها من قبل، فقد أعاده السلطان هذه المرة كذلك إلى خدمة المخزن ردحًا من الزمن، ثم ما لبث أن نكبه بعد فترة من تقلّده المنصب، فكانت في المرة الأولى، في النكبة الرابعة تحديدًا، سقوطًا مدويًّا اتخذ الزّيّانيّ على إثره القرار بالرحيل عن الديار، أما هذه النكبة، وإن كانت ظروفها شبه مطابقة لظروف النكبة الرابعة، إلا أنها كانت أقلَّ إيلامًا للزيانيّ، وعلى الرغم من ذلك، قرر الجلاء والغربة.

النكبة السّابعة: تمثلات الموت

لم يصرّح الزّيّانيّ بترتيب هذه النكبة بين النّكبات الست الأخرى التي تعرّض لها، لكنّه أوردها في أواخر الكتاب، ولعله أرجأ الحديث عنها لعظم هولها، وشدة ألمها، وعظيم فاجعتها، فقد قضى الله تعالى أن يُفجع الزّيّانيّ بولده، فبلغ حتفه في رمضان 1233هـ[37]، وفي ذلك يقول: **"ونستطرد هنا جملة النّكب المتقدمة، ما أصبنا به من موت الولد البارّ في منتصف رمضان عام 1233، جعله الله لنا في ميزان القبول، وهوَّن علينا المصيبة بعده"**[38].

لا شك أنّ فقد الابن يُعَدُّ فاجعة فادحة، ومصيبةً كبرى لا يمكن تجاوزها أو نسيانها بسهولة، فالولد فلذة الكبد، ورحيله إلى العالم الآخر يساوي تمامًا رحيل جزء من جسد الأبوين، لذلك وصف الزّيّانيّ موت ابنه بالنكبة، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على الجزع الشديد، ففقد الأبناء ليس بالأمر الهين، وليس كلّ الآباء والأمهات من القوة بحيث يتجاوزون هذا الظرف العصيب بعد فترة وجيزة، فالناس قدرات. على أنّ الزّيّانيّ، وإنْ كان قد وصف فقد ابنه بالنّكبة، إلا أنه حمد الله، واحتسب الأجر في ذلك.

وقد ضَمَّنَ الزّيّانيّ ذلك الموقف آياتٍ قرآنيةً وأحاديثَ نبويةً استشهد بها على صحة كلامه في ثبوت الأجر العظيم لمن مات ولده، فقد أورد قوله تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ"[39]، وكذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: "إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمّوه: بيت الحمد"[40].

الخاتمة

لم ير أبو القاسم الزّيّانيّ بُدًّا من تقييد النكبات السبع التي آلمته وتضمينها في نصّ **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، الذي يُمثّلُ نصًّا فريدًا استطاع كاتبه أنْ يُحقق التفاعلات النصيّة بين عوالم رحلاته الثلاث العامرة بالأخبار والعجيب والغريب وملامح سيرته الذاتية الحافلة بالاعتراف والمُكاشفة ليؤسس خطابًا ذا ملامح وخصوصيات في البلاغة والتواصل أدبية مُضمَّنةٍ بالمُلَحِ والنّوادر والطَّرائف والشّواهد.

وعلى الرغم من نكبات الزّيّانيّ المتواترة وفجائعه المتوالية إلا أنّ ذلك لم يَحُلْ دون الكتابة وتنصيص الذّات، بل إنه وجد في الرّحلة كونًا فسيحًا طَفِقَ يجول في أرجائه الممتدّة، وألفى في أدب الرّحلة خطابًا تفاعليًّا وفضاء خصبًا تنسرب فيه أناه، وألفى في الكتابة طوق نجاة يقيه من المأساة والمحنة والفقد والفجيعة.

وقد كشفت هذه المُقاربة عن أنّ السّفر والترحال والتنقل بين الفضاءات المختلفة تُعَدُّ نوافذ واسعة وبوابات مشرعة على مصراعيها ليستمد منها الرحالة القوّة والشّجاعة ليعبّر عن توجعاته وأناه الموجوعة وذاته المكلومة، والتخفيف من وقع النكبات على النفس؛ فالسّفرُ يُحرّرُ المرءَ من هواجسه، والرحلةُ كشفٌ ونداءٌ قصيٌّ بأنّ "على الأرض ما يستحقُّ الحياة". ولعلّ هذا ما احتاج إليه الزّيّانيّ للتعبير عن آهاته وآلامه، فأثناء الرحلة تنكشفُ له النّفسُ

وتنجلي له مكبوتاتها، وتتجلّى له حقائق النّاس الذين قد يكون قد أصابَت بعضهم ظروفٌ وأهوالٌ وأحوالٌ مماثلة من النّكبات والفجائع، لذلك يمكن القول: إنّ الزّيّانيّ مفردٌ بصيغة الجمع؛ فهو وإنْ عرض تجاربه في النّكبات والفجائع إلا أنه يترجم ويتحدّث باسم والمنكوبين المفجوعين.

لقد شكلت التّرجمانة خطابًا سرديًا منفتحًا على أجناس أدبية أخرى، كالسيرة الذاتية والشعر والأخبار وغيرها، فخرجت من قالب أدب الرحلة المؤطر بالوصف الجغرافي للرحلة، والمحدّد بوصف الشعوب والبلاد التي يزورها الرحالة، لتتخذ شكلاً يتجاوز النصّ الرّحليّ. ومن الناحية الشكلية، منح هذا تداخلُ الأجناسِ وتفاعلُها "التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا" لمسة فنية جمالية أخذت بيد القارئ نحو الاستمتاع بقراءة الترجمانة والانتفاع بها والتّفاعل مع خصوصيتها الفنيّة الفريدة.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- الزّيّانيّ، أبو القاسم، **التُّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، تح: عبد الكريم الفيلالي، (د ط)، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع - الرباط، 1991.

ثانيًا: المراجع:

- الأسدي، حيدر علي، **تداخل الأجناس الأدبية وأثرها الجمالي في النص المسرحيّ العربيّ**، ط1، دار أمجد للنشر والتوزيع - عمّان، 2018.

- بروفنصال، أفاريست ليفي (Évariste Lévi-Provençal)، **مؤرخو الشرفاء**، تر: عبد القادر الخلادي، (د ط)، 1977، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر– الرباط.
- بلانشو، موريش، **كتابة الفاجعة**، تر: عز الدين الشنتوف، ط1، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، 2018.
- التجديتي، نزار، **النّاظم السردي في السيرة وبناتها "دراسات فيما وراء العيان والخبر**، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع – عمّان، 2019.
- الترمذي (ت 279 ه)، محمد بن عيسى، **جامع الترمذي**، (د ط)، مؤسسة المؤتمن للتوزيع - الرياض، (د ت).
- الحمويّ (ت 626 ه)، ياقوت، **معجم البلدان**، م1، (د ط)، دار صادر - بيروت، 1977.
- خليل، عماد الدين، **من أدب الرحلات**، (د ط)، دار ابن كثير، 2005.
- صادق، عادل، **الألم النفسي والعضوي**، (د ط)، ببليوتيكا الإسكندرية - مصر، 1984.
- الغزالي (ت 505 ه)، أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، ط1، دار ابن حزم – بيروت، 2005.
- غريماس، ألجيراد، **سيميائيّات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النّفس**، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المُتّحدة، ط1، 2010، بيروت.
- غنيم، سيد محمد، **سيكولوجيا الشخصية "محدداتها. قياسها. نظرياتها"**، (د ط)، دار النهضة العربية – مصر، 1972.
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش، **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، (د ط)، 1957، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
- الموافي، ناصر عبد الرزاق، **الرحلة في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري**، ط1، دار النشر للجامعات المصرية - مصر، 1995.

- النووي (ت 676 هـ)، يحيى بن شرف، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تح: ماهر ياسين الفحل، ط1، دار ابن كثير – دمشق، 2007.
- وهبة، مجدي والمهندس، كامل، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط2، مكتبة لبنان - بيروت، 1984.
-

---

* **باحث أكاديميّ في برنامج الدراسات العُليا – قسم اللغة العربيّة – جامعة قطر.**

1 ينظر: كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش، **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، (د ط)، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، 1957، ص 770 – 772.

2 ينظر: الأخضر، محمد، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية**، ط1، دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء، 1977، ص 398 – 408.

3 ينظر: بروفنصال، أفاريست ليفي، **مؤرخو الشرفاء**، تر: عبد القادر الخلادي، (د ط)، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر – الرباط، 1977، ص 102 – 136.

4 ينظر: كنون، عبد الله، **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، تقديم: محمد بن عزوز، ج2، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، 2010، ص 623 – 653.

5 ينظر: التجديتي، نزار، **الناظم السردي في السيرة وبناتها "دراسات فيما وراء العيان والخبر"**، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع – عمّان، 2019، ص243، 254.

6 غريماس، ألجيراد، **سيميائيّات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النّفس**، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المُتّحدة، ط1، 2010، بيروت، ص 162.

7 ينظر: عطية، قصي محمد، **في تداخل الأجناس الأدبية**، مجلة الموقف الأدبي، م45، ع547، اتحاد الكتاب العرب – سوريا، تشرين الثاني / نوفمبر 2016، ص22.

8 ينظر: كيليطو، عبد الفتاح، **الأدب والغرابة – دراسات بنيوية في الأدب العربي**، ط3، دار توبقال للنشر – الدار البيضاء، ص22.

9 ينظر: خليل، عماد الدين، **من أدب الرحلات**، (د ط)، دار ابن كثير، 2005، ص6.

10 الغزالي، أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، ط1، دار ابن حزم – بيروت، 2005، ص713.

11 ينظر: المرجع السابق، ص713.

12 نقلًا عن: الموافي، ناصر عبد الرزاق، **الرّحلة في الأدب العربيّ حتى القرن الرابع الهجريّ**، ط1، دار النشر للجامعات المصرية – مصر، 1995، ص24.

13 ينظر: **الرحلة في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري**، ص38.

14 وهبة، مجدي والمهندس، كامل، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط2، مكتبة لبنان – بيروت، 1984، ص17.

15 غنيم، سيد محمد، **سيكولوجيا الشخصية "محدداتها. قياسها. نظرياتها"**، (د ط)، دار النهضة العربية – مصر، 1972، ص258.

16 ينظر: صادق، عادل، **الألم النفسي والعضوي**، (د ط)، ببليوتيكا الإسكندرية – مصر، 1984، ص26.

17 **سيكولوجيا الشخصية "محدداتها. قياسها. نظرياتها"**، ص462.

18 نفسه، ص462

19 الزّيّانيّ، أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا**، تح: عبد الكريم الفيلالي، (د ط)، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع – الرباط، 1991، ص58، 59.

20 نفسه، ص58.

21 نفسه، ص58.

22 ينظر: الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، م1، (د ط)، دار صادر – بيروت، 1977، ص344.

23 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص59.

24 نفسه، ص59، 60.

25 نفسه، ص12– 24.

26 نفسه، ص62.

27 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص62.

28 الترمذي، محمد بن عيسى، **جامع الترمذي**، (د ط)، مؤسسة المؤتمن للتوزيع – الرياض، (د ت)، ص373.

29 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص61.

30 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص24.

31 نفسه، ص139.

32 نفسه، ص139.

33 يقصد مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله، حكم بين عامي 1792 – 1823. ينظر: **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص8.

34 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص140.

35 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص380.

36 نفسه، ص382.

37 **التّرجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًّا وبحرًا**، ص542.

38 نفسه، ص542.

39 سورة البقرة، الآية (155).

40 النووي، يحيى بن شرف، **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**، تح: ماهر ياسين الفحل، ط1، دار ابن كثير – دمشق، 2007، ص385.